مفهوم الشجاعة في الفلسفة الإسلامية وتعالقاته بالأخلاق الأخرى

د. حامد بن أحمد الإقبالـي(*)

ملخص

لم يحظ مفهوم الشجاعة بدراسة وافية تَستجلى فيه الأفكار المركزية التي يقوم عليها والتعالقات التي تربطه بالمنظومة الأخلاقية مما دعانا إلى المساهمة في صياغة نظرية أخلاقية في توصيف هذا المفهوم وفقاً لما قدمته نصوص الوحي (الكتاب والسنة) ونظر علماء الأخلاق عليهما، وقد ساهمنا في زحزحة بعض المظاهر السلوكية التي لا تجسد حقيقة الشجاعة، كربطها بالقوة الجسدية، أو الاقدام المطلق، وقد سعى هذا البحث إلى التعرف على القوى النفسية التي تولّد مفهوم الشجاعة وكشف تعالقات هذا المفهوم مع بقية المفاهيم الأخلاقية في الفلسفة الإسلامية، وقد توسلنا بالمنهج الوصفي في أداته الوثائقية، وكان من نتائجه أن نظرية التعاهد التي فسرت بناء مفهوم الشجاعة في الإسلام وتعني: الثبات في حفظ الإيمان بين العبد وربه،وتقوم على ثلاثة أسس:أولها أن الشجاعة الباطنة هي محرك الشجاعة الظاهرة وهذا مقام الثبات، والثاني: قصد التقرب في الشجاعة يكون بالنية الأخلاقية وليس الحمية وذلك مقام الإخلاص، والثالث ضرورة التكامل بين عالمي الغيب والشهادة وهو مقام الإيمان، وثبوت وجود تعالقات متشابكة بين الشجاعة وأخلاق الصبر والكرم والحكمة وهي علاقة وجود وكمال، فالمسميات متباينة وحقيقة الخلق ثابتة، وذلك أن الشجاعة هي في حقيقتها تمظهر خارجي لقوة الصبر وسماحة النفس ومنطق الحكمة، ولوازم لوجودها.

الكلمات المفتاحية:

الشجاعة، الثبات، الإخلاص، الإيمان.

Abstract:

The concept of courage lacks a comprehensive analysis that would elucidate its central ideas as well as its broader interconnections with the field of ethics. This study aims to contribute to the development of an ethical

(*) دكتوراه في الأصول الإسلامية للتربية (كلية التربية بجامعة أم القرى)

theory that describes the concept of courage based on the texts of Revelation (the Quran and Sunnah) and the respective scholarly takes on them by ethicists. The study also aims to dispel some misconceptions about behavioural manifestations that do not embody the true essence of courage, such as linking it to physical strength or reckless behaviour. Instead, it identifies the psychological forces that generate courage and explores its connections with other ethical values in Islamic philosophy.

Using a descriptive methodology with documentary sources, the researcher introduces a new theory called the Covenantal Faith Theory, which analyses the concept of Divine covenants in Islam and the central role they play in fortifying faith in the midst of man's pursuit for an everlasting relationship with God, and how these scripturally sanctioned covenants underlie the main building blocks of society's moral infrastructure. The theory serves as an anchor for deconstructing the concept of courage in Islam, and is based on three foundational aspects:

Firstly, inner courage is the driving force behind external courage, and this is identified as the "steadfastness" level. Secondly, seeking courage is motivated by ethical intentions rather than recklessness, and this is the level of "sincerity". Thirdly, the necessity to integrate the seen and unseen worlds, and this is the level of "faith".

Moreover, the study highlights the interconnectedness between courage and other virtues, such as patience, generosity, and wisdom. This interconnectedness is one of mutual dependence and perfection. That is because the concepts vary, yet the reality of the moral ground that unites them is unmovable; for courage is, in essence, an external manifestation of the power of patience, the nobility of the soul, and the rationality of wisdom, all of which are concomitants of its existence.

Keywords: courage, steadfastness, sincerity, faith.

مقدمة

كانت الأخلاق محوراً مركزياً مرتبطاً بتعاليم الدين الإلهي – منذ بدء الخليقة – حتى استقل كعلمٍ من العلوم المهمة التي تدرس السلوك الإنساني،ولأن هذا العلم يهتم بالمبادئ الجامعة للأخلاق ومصادرها والبحث في حقيقة الفضيلة ومقاصدها؛ كان ضمن هذه الأخلاق المركزية مفهوم الشجاعة الذي مثّل أحد الأعمدة الثلاثة التي ترتكز

عليها الأخلاق الإسلامية – إذا اعتبرنا أن قوة الدفع الغضبية هي إحدى القوى الإنسانية التي تتنازع الإنسان إلى جانب القوتين الشهوية والعقلية – ابتغاء تحديد واف لمفهوم الشجاعة في الفلسفة الأخلاقية في الإسلام، من خلال معرفة الطبيعة الغريزية التي نتج منها ودراسة المرجعية الأخلاقية التي انطلق منها والخصائص الخلقية التي اشتمل عليها وساهمت في بنيته الفلسفية، عوضاً عن الوصف المجمل الذي يتعرض له ضمن سياقات الجهاد الشرعي أو الأحكام الفقهية.

لقد كانت الشجاعة خصلةً مركزية في حياة الناس تتوقف عليها مصالحهم ومنافعهم، منذ أن كانت شرطاً في بسط النفوذ والسيطرة على الآخرين، حتى حفلت معلقاتهم الشعرية الشهيرة قبل الإسلام بالعديد من القصائد التي تفتخر بضروب البسالة التي أبدوها في المعارك والحروب، لكن مع بزوغ فجر الإسلام استدعى ذلك تغيراً لمعايير الشجاعة الأخلاقية يراعي بعداً حديداً وهو عالم الغيب كما كان الناس يرعون مصالحهم في عالمِ الشهادة، فأصبح لها مصادر تستقي منها خلافاً لمصادرها السابقة وأضحى لها أسساً تتكون منها تتباين عن أسسها السابقة، فأضحت الشجاعة من الأصول المعتبرة للخير، ومادة الرجولة والمروءة التي تكمل في الفرد، فكان ثبات القلب عند إخراج المرغوب أو ورود المكروه هو محور الشجاعة وحدها الذي تقف عليه، ومع ذلك فهي لا تلزم الفرد أن يكون استثنائياً في الرأي أو مقاوماً لفكرٍ مختلفٍ ليكون شجاعاً كما قررت الفيلسوفة الفرنسية سينتيا فلوري[1].

ونتغيا من هذه المناقشة والتحليل إلى صياغة نظرية أخلاقية في مفهوم الشجاعة ومدى ارتباطه بالمنظومة الأخلاقية تراعي الأصالة الحقّة، وتتجاوز في الوقت ذاته القطيعة المعرفية التي حدثت في القرون المتطاولة بالتراث الإسلامي وتسلّط الضوء على المظاهر السلوكية التي لصقت به دون أن تجسد حقيقته الأخلاقية، لذلك كان السؤال المركزي الذي نطرحه هنا:

ما أبرز الأسس التي يقوم عليها مفهوم الشجاعة في فلسفة الأخلاق الإسلامية؟

وحتى نجيب على هذا السؤال، يجب أولاً أن نتبع عدد من الخطوات والمقدمات التي توصلنا إلى توصيف هذا المفهوم، ويتفرع من السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية التالية:

1- ما القوى النفسية التي يستمد منها مفهوم الشجاعة طبيعته؟

---

[1] فلوري، سينتيا، نهاية الشجاعة:من أجل استعادة فضيلة ديمقراطية، ترجمة: عبد النبي كوارة، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.

2- ما الأسس التي يقوم عليها مفهوم الشجاعة؟

3- ما العلائق التي تنظّم مفهوم الشجاعة ببقية الأخلاق؟

وستكون المعادلة الإبستمولوجية ذات ثلاثة مداخل، **أولها:** التعرف على القوى النفسية التي تولّد مفهوم الشجاعة، وثانيها: صياغة نظرية فلسفية لمفهوم الشجاعة الأخلاقي، وثالثها: كشف تعالقات هذا المفهوم مع بقية المفاهيم الأخلاقية في الفلسفة الإسلامية، وقد توسلنا بالمنهج الوصفي في أداته الوثائقية لدراسة هذه الظواهر والخروج بمقاربة بحثية تستطيع أن تفسر لنا منطقيا الدلائل التي أقمناها من نصوص الوحي: القرآن الكريم والسنة النبوية، واستثمار المقولات والاستنباطات التي دونت عند علماء الأخلاق المسلمين وفلاسفتهم في تفسير هذه النصوص أيضاً، وذلك من أجل نتائج ثابتة وصادقة، كما قمنا بتتبع مفهوم الشجاعة أو مرادفاته كما حثّت عليه الشريعة الأخلاقية في الإسلام أو دعت إليه أو نهت عن مخالفته، ثم تطبيقات معرفته الأخلاقية عند العلماء الأخلاق الأوائل وتحليل هذه الأوامر الشرعية والظواهر الأخلاقية وموقف علماء الأخلاق إزاءها وحججهم في وصف مفهوم الشجاعة وتعالقاته بالأخلاق الأخرى.

وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة ومدخل وثلاثة مباحث ذات صلة ببعضها تكون في مجموعها نسيجاً واحداً لمفهوم الشجاعة كما تصوره علماء الأخلاق في الإسلام إضافة إلى خاتمة على النحو التالي:

1-**المبحث الأول** يناقش القوى البشرية الثلاث التي تنشأ منها جميع القيم الأخلاقية، فالقوة الأولى هي قوة الشهوة التي تعتبر المسؤولة عن أخلاق الحرص والطمع والمحبة، والقوة الأخرى هي قوة الغضب التي يتناسل منها الشجاعة والنجدة، أما القوة الثالثة وهي قوة المنطق فهي التي ينشأ منها البيان والحكمة والعقل وقد تطرقنا إلى تمايز الأخلاق الإسلامية عن نظيراتها في الحضارات المختلفة بمبدأ (الكمال المعتدل) الذي يجعل من هذه الأخلاق مستويين من النكوص والارتقاء يكون أعلاها أفضلها وليس أوسطها.

2- **المبحث الثاني** تناول الأسس الثلاثة التي قامت عليها نظرية التعاهد الأخلاقية لمفهوم الشجاعة فهي ميثاق لثبات القلب في حفظ الإيمان بين العبد وربه في المواقف والمهمات سواء كانت من المنافع أو المضار، فالشجاعة ترتكز حقيقتها في أساسها الأول على الثبات في اتخاذ المواقف سواء كانت إقداماً أم إحجاماً وهو الأمر الذي

يعطي القلب فرصة لإصابة السلوك المحمود في الشريعة الأخلاقية ثم تقوم في أساسها الثاني على توظيف النية الصالحة قبل الشروع في العمل وإلا كانت شجاعة بلا مقاصد شرعية ولا غايات محمودة، ثم إن هذه الشجاعة تقتضي في أساسها الثالث تعاضد شروط الشجاعة المادية من تهيؤ واستعداد بشروط الشجاعة الروحية وهي الإيمان بالإيمان والمصير.

3-**المبحث الثالث** استبان أهمية هذا المفهوم وتعالقاته الصفاتية وحدوده المعرفية مع الأخلاق المركزية الأخرى التي لا ينفك عنها حتى أضحت أخلاق الشجاعة والكرم والصبر والحكمة متقاربة المعنى في الذات ومتشابهة في الأوصاف.

4- **الخاتمة والنتائج**

وسوف نتعرف في هذا البحث إلى تفصيل هذه القضايا من خلال المنهجية التي اتبعناها ورأينا أن نبدأ بالفصل الأول بهذه القوى لدورها في أن تكون رافعات أخلاقية تفسر لنا الجزء المادي من مفهوم الشجاعة قبل أن نتعرض إلى حقيقته الأخلاقية وكشف تقارباته وحدوده واختلافاته.

المبحث الأول: القوى الإنسانية بين الجذب الملائم والدفع المنافر

يتطلب الاشتغال بالفضائل معرفة خواص النفس وقواها التي تتوالد منها هذه الفضائل، وقد حثّ القرآن الكريم على التأمل في الطبيعة الإنسانية والتفكر في جبلّتها وإرادتها، قال تعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) (الذاريات:21) وتكاد تتفق الفلسفات الإنسانية على أن النفس البشرية جبلت على قوتين إحداهما لجذب الملائم طلباً للذّة، والأخرى لدفع غير الملائم طلباً للغلبة، وهما مغروزتان في الطبيعة الحيوانية، ومنها تتولد الفضائل الإنسانية، فقوة الشهوة الجاذبة هي ما يجلبه الانسان من المنفعة لنفسه وما يتعلق بها من الأخلاق الفاضلة، كالمحبة، والإرادة أو الأخلاق السيئة، كالشح، والحسد، وقوة الغضب الدافعة هي ما يدفعه الانسان عن نفسه من المضار وما يتبعها من البغض والكراهة، وينتج عن هذه الأخيرة إما أخلاقاً فاضلة كالشجاعة والمروءة والحمية، وقد تولّد أخلاقاً سيئة كالبغي والظلم والعدوان، وقد اتفق علماء وفلاسفة الأخلاق على هذه القوى باعتبار القدر المشترك بين الإنسان والبهائم، لكن باعتبار ما يختص به الإنسان فتزيد قوة ثالثة، وهي قوة العقل والإيمان المولّدة للمنطق والحكمة التي يختص بها البشر عن الحيوانات[1]، ولا

---

[1] انظر: لكرماني شرح رسالة الاخلاق ص175-180 وابن تيمية، مجموع الفتاوى، (15/430). والغزالي، ميزان العمل ص200.

تختلف هذه القوى عند فلاسفة المسلمين عما هو مقرر في المذاهب والفلسفات الأخرى؛ وذلك لأنها مشترك إنساني تتشابه فيه هذه القوى عند بني آدم كلهم ويؤكد على بدهيتها العقل الانساني، وقد جاءت فضائل هذه القوى مذكورة مرتبة حسب أهميتها في المصدر المعرفي الأول عند المسلمين يقول تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ولا يزنون ۚ ومن يفعل ذلك يلق أثاما) (الفرقان 68) فقوة الحكمة تقتضي عبادة الله وحده، والقوة الغضبية تقتضي الكف عند الاعتداء على الآخرين، والقوة الشهوية تقتضي العفة عن الفواحش، وأورد ابن تيمية أثراً عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيه " أكبر الكبائر ثلاث: الكفر ثم قتل النفس بغير الحق ثم الزنا"[1] وهي دلالة إضافية تؤكد قيمة هذه القوى، وما تفرضه من فضائل ورذائل أخلاقية.

وإقرار المدح والذم في نتائج هذه القوى دلالة على آثارها وأهميتها في الشريعة الأخلاقية وإلا فهي ليست شراً أو خيراً في ذاتها، لذلك رأى الفلاسفة أن أشرف هذه القوى القوة المنطقية ثم تأتي أوسطها القوة الغضبية ثم القوة الشهوية، لكن الحكمة (القوة المنطقية) لها دلالة مغايرة في فلسفة الأخلاق الإسلامية، فهي ليست العلم النظري المجرد كما هو عند فلاسفة اليونان، بل الحكمة المرادة أنها اسم يجمع العلم والعمل به في كل أمة، فابن قتيبة يقرر أن الحكمة عند العرب العلم والعمل به، وعند الإمام مالك: معرفة الدين والعمل به، وكل أمة لها حكمة بحسب علمها ودينها– كما يقرر ابن تيمية – فالهند لهم حكمة مع أنهم مشركون كفار، والعرب قبل الإسلام كانت تزخر بأقوال حكماء العرب مع كونهم مشركين يعبدون الأوثان، فكذلك اليونان لهم حكمة كحكمتهم، وحكماء كل طائفة هم أفضل تلك الطائفة علما وعملاً[2].

والواقع أن القوة الغضبية هي المسؤولة عن إنتاج خلق الشجاعة إلى جانب أخلاق أخرى، ومن خواص هذه الهيئة أنها تصدر من خواص محددة تناسب طبيعته كاليبس والصعوبة والقوة، وهو يناقض بهذا قوة الشهوة التي تصدر عن الليونة والسهولة، وقد عبر ابن تيمية عن القوة الغضبية بأنها قوة الانتصار، بينما القوة الشهوية هي قوة الرزق وهما المذكوران في قوله تعالى (الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)

---

[1] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 15/425.

[2] ابن تيمية، الرد على المنطقيين، 446–447

(قريش:4) ولفت الى أن هذين المفهومين (النصر) و(الرزق) مقترنان في الكتاب والسنة وكلام الناس كثيراً[1] فكأن هاتين القوتين عليها مدار القوى جميعها ويتفرع منها قوى أخرى، ويتشعب من هذه القوى جميع الأخلاق الإنسانية.

وعلى الرغم من أن الشجاعة وليدة القوة الغضبية، إلا أنها يجب أن يكون لها القدرة في السيطرة على الغضب وكبح مشاعر الانفعال، فلا معنى للشجاعة دون كظم الغيظ والحلم على الآخرين، لذلك جاء الحديث النبوي للرسول صلى الله عليه وسلم معياراً للشجاعة الحقيقية في المنظومة الأخلاقية "ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"[2] فالشجاع هو من يسيطر على الغريزة الغضبية المطبوعة في نفسه بالخلق الحسن والسلوك الحميد، وفي ذلك دلالات على قدرة الإرادة الحرة وشدة الصبر في ضبط الانفعالات السيئة مهما بلغت غريزة الغضب من الجموح، وقد ركّبت هذه الغريزة في طبع الإنسان فلا يمكن له أن يتخلص منها أو يقطعها، غير أن في يده أن يمنع مقدماتها ويضبط آثارها فلا تمتد بالضرر على نفسه ولا على الآخرين، وهذه هي الشريعة الأخلاقية المرادة: قهر النفس عن الاعتداء حد الاعتدال، وليس بالضرورة أن يكون اختلاف أحوال الناس في الشجاعة عائداً إلى اختلافهم في أحوال النفس الغضبية، فيصح أن من كانت نفسه مذلّلة فإنها تجنح إلى الحلم والشجاعة والوقار، وإن كانت غضبية نفورة كان صاحبها ظالماً معتدياً باغياً، لكن الاكتساب والتخلّق بالسلوك الحسن هو العامل الأبرز في ضبط هذه الاخلاق وإلا بطلت أوامر الشريعة الأخلاقية.

وقد تنبه أبو حامد الغزالي لهذا التصور المغلوط عن مفهوم الشجاعة، وذكر أن أشد البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة حتى تميل النفس إليه وتستحسنه، والحقيقة أنه مرض قلبٍ ونقصان عقل وهو لضعف النفس ونقصانها، واستشهد بالمرض إذ صاحبه أسرع غضباً من الصحيح، والمرأة أسرع غضباً

---

[1] ابن تيمية، مجموع الفتاوى (15/434-432).

[2] صحيح البخاري، كتاب الأدب، (5/ 2267)

من الرجل، والصبي أسرع غضباً من الرجل الكبير، والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل، حتى أن البخيل يغضب إذا فاتته الحبة على أهله وولده وأصحابه[1].

وقد ذُم من قطع غرائزه خشية أن تؤثر على أخلاقه، لأنها كالنهر المتدفق والشلال الثائر لا بد له أن يظهر حتى ولو على شكل أعراض نفسية أو انفعالات شعورية تظهر في خفايا السلوك والوجدان، فالكمال الخلقي ليس اجتثاث الدافع الغريزي لأنه تكليف بما لا يطاق، ولو افترضنا إنساناً تخلّص من قوته الغضبية حتى اضمحلت منه بالكلية، فإن هذا ينعكس على آثار السلوك أبداً حتى تزول منه شجاعته ويذهب خلقه تماماً، ويظل مجرداً من الأخلاق الفاضلة والأعمال الحسنة **وهنا نتساءل:**

هل اكتساب الشجاعة من فروض الاستطاعة أم من فروض الاستحالة؟

الواقع أن الأخلاق بين مستويين، أحدهما طبع في النفس جبله الله عليها في فطرته، والآخر قابل للتغيير يمكن للإنسان أن يكتسبه ويقوم به وفقاً لأنوار الوحي وإرشاداته، ولو افترضنا خلقاً كالشدة مثلاً فإنه لا يمدح في كل مقام كما لا تمدح الرحمة في كل موطن، لذلك اعتبر علماء الأخلاق أن المحمود دائماً ما وافق معيار الشرع والعقل، فمن جبله الله على الشجاعة مثلاً دون اكتساب منه لها فهذه منة من الله تعالى عليه، ومن لم تتطبع بها خلْقته فعليه بتحصيلها. وقد اقترح بعض فلاسفة الأخلاق حلولاً يعالجون به هذا المفهوم إن مال عن اعتداله لكنهم اشتطّوا في ذلك، فالغزالي يوصي بمن كان طبعه مائلاً إلى النقصان الذي هو (الجبن) فليتعاط أفعال الشجعان، متكلفا مواظباً عليه، حتى يصير بالعادة طبيعة وخلقاً فتصدر منه دون تكلّف أفعال الشجعان، وأما إذا كان مائلاً إلى العكس وهو التهور، فعليه أن يستشعر عواقب الأمور ومآلاتها، وليتكلّف الإحجام إلى الاعتدال[2] والأولى أن يتعاطى مقتضيات الشجاعة وفقاً للأمر والنهي الشرعي، فالمعيار هو المراد الشرعي من الشجاعة وليست الشجاعة في حد ذاتها وإلا كان من يقاتل في الحروب شجاعة لا طلباً لمرضاة الله محموداً[3]، وقد ذهب عضد الدين الإيجي – في كتابه رسالة الأخلاق – لعلاج هذه النقيصة الأخلاقية إلى

---

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، 3/172.

(2) الغزالي، ميزان العمل، ص266.

(3) جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء، فأنى ذلك في سبيل الله؟ قال: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله "(صحيح ابن حبان، باب فضل الجهاد، رقم الحديث 4636)

أبعد من ذلك في هذا السياق، وذلك بارتكاب المقابل الأخلاقي للجبن في الطرف الآخر[1]، ومقتضى قوله: أن المصاب بالجبن يتوجب عليه أن يتخلّق بالشجاعة فإن لم تفلح تخلّق بالتهور وهو النقيض الأخلاقي للجبن، حتى تكتسب النفس ركوب المخاطر والأهوال فترتاض الشجاعة بعد ذلك، لكن السؤال: من يضمن السلامة من الاعتداء على المعصومين حين يتلبس بالتهور الأخلاقي؟

والواقع أن الشجاعة من الممكن اكتسابها وإن لم يجبل الإنسان عليها، فالتعود والمراس على معاني البطولة يربط الجأش ويثبت النفس، كما أن تقوية الإيمان بالله تعالى واليقين بجزائه يبعث في النفس هذا الخلق وينميه، كما أن إصلاح التصور الفكري عن الشيء المراد وفهم حقيقته يدفع النفس إلى اكتساب صفة الثبات في مواقفه وخطاباته، وفي مختار الصحاح (تشجع) تكلّف الشجاعة[2] فالتمرن على لوازم الشجاعة، وتدريب النفس على مظاهر البطولة واحتمال الكد يعود القلب على الثبات والصبر، على أن يستدعي هذه المعاني وفقاً لحدود المنظومة الأخلاقية الإسلامية وليس وفقاً لهواه ورغبته ومراده منها.

وتتميز الأخلاق الإسلامية بخاصية تختلف بها عن بقية المنظومات الأخلاقية الأخرى، ويجوز لنا أن نطلق عليها مقام (الكمال المعتدل) وملخصها أن الخلق يترقى تدريجياً إلى الأفضل ليتمثّل مقام الكمال الواجب حتى يصل إلى الكمال المستحب، وهذا الاقتراب بحسب الأحوال، ونتمثّل هنا قول الرسول صلى الله عليه وسلم (سددوا، وقاربوا، وأبشروا)[3] فالسداد هو توجه نحو الكمال وتحقيق الاستدامة الخلقية، فتظل في عروج دائم إلى الخير، وهي بهذا تختطّ منهجها الخاص مختلفة بذلك عن نظرية (الوسط الأرسطي) الذي يفترض أن الخلق الفاضل وسطٌ بين رذيلتين، وهذا الوسط لا يتقاطع مع مفهوم الوسطية بل يعتبر الخلق المحمود وسطاً بين إفراط وتفريط فكلا الطرفين لديه رذيلة، لذلك كانت الأخلاق عند المسلمين تعطي معنى للعدل والعَدالة الموجودة في مقام الكمال المعتدل، فالصادق مثلاً يصدق ويتحرى الصدق حتى يصبح صديقاً، ومثله الكاذب فإنه يكذب حتى تترسخ الصفة فيه فيكون كذّاباً وهكذا.

فالأخلاق الإسلامية إذاً ليست وسطاً بين نقيضين وإنما لكل مفهوم أخلاقي مقياسه النوعي، فبعضها طرفان وواسطة تقع فيه الفضيلة في الطرف الأعلى، والفضائل

---

(1) الكرماني،شرح رسالة الأخلاق لعضد الدين الإيجي، 1442هـ.

(2) الرازي، الصحاح،ص161

(3) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، رقم الحديث 6467.

الكبرى في كمالاتها تتربع على سنام الأخلاق وذلك مِثل درجة الإحسان، ثم تهبط في الدرجة الأقل أخلاق المقاصة[1] التي لا تظلم ولا تظلم متمسكة بالحياد فإن اعتدي عليها اعتدت على من ظلمها، ثم في الدرجة الهابطة أخلاق الشر التي تجنح الى الاخذ من الآخرين وعدم إعطائهم حقوقهم، وهناك مفاهيم أخلاقية تقع في طرف الفضيلة الأعلى ثم تنقص إلى أقل منها، وهذا النموذج (شكل 1)[2] يحاول فيه الباحث أن يرسم مقاربة نموذجية تفسيرية لواقع منظومة الأخلاق، ومثّلنا فيها بمفهوم (الشجاعة) في طريقة ارتقائه من درجة أقل إلى درجة الكمال، بينما (شكل2) يفسر فكرة الفضيلة في المنطق الأرسطي.

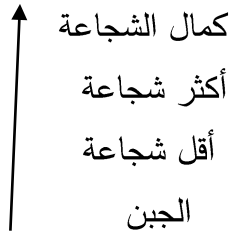

(الشكل 1)

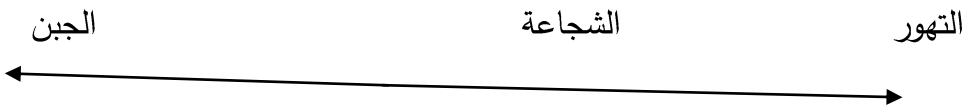

(الشكل 2)

وحين نقول ذلك فلأننا نفرق بين المفاهيم المتناقضة، التي لا يستقيم أن نضعها على طريق واحد لاختلاف مصادرها ودوافعها، لذلك لاحظ فيلسوف الأخلاق مسكويه هذه الظاهرة فقال "أما الهيئة القابلة لأحد الضدين فهي غير الهيئة القابلة للضد الآخر، ومثال ذلك هيئة الشجاعة فإنها غير هيئة الجبن وكذلك هيئة العفة غير هيئة الشره، وهيئة العدالة غير هيئة الجور"[3] فحقيقة الشجاعة ليست بمعنى قوة الحمية وأنها خلق وسط بين التهور والجبن، فالتهور زيادة عن حد الاعتدال في الشجاعة، والجبن حالة نقص في الشجاعة وضعف في منطق القوة الغضبية كما قرر ابن العربي – وأن هذا

---

(1) هي استيفاء الحقوق من الآخرين فيقتص ممن ظلمه دون هضم ولا زيادة.

(2) الشكل من تصميم الباحث

(3) مسكويه، تهذيب الأخلاق، ص138.

الميزان غير المنطقي تلفيقاً لا ينتهض به علم، وأنه يشبه مقوله أهل بغداد: "بناءٍ شاذوف على قاذوف ليأتي منه لافوف" وأقام على أنقاض هذه النظرية تعريفا مناهضاً للمفهوم الشائع عن الشجاعة، فهو يرى أنها: **ثبات النفس عند حلول المصائب**[1].

والذي يجب أن نلفت النظر إليه أن من القضايا المركزية في فلسفة الأخلاق حرية الإرادة الإنسانية في السلوك والتصرفات، فكما أن الانسان يتمتع بمعنى الحرية وتوابعه فإنه مسؤول عن أعماله، فليس هناك قوة نفسية أخرى تدفعه إلى الأعمال الأخلاقية أو تمنعه من إتيانها، وهذا مناط التكليف الأخلاقي للفرد المسلم، فلا يعني حديث الباحث السابق عن هذه القوى الإنسانية قدرتها (الجبرية) في السلوك البشري، وإنما بيان الطبيعة الإنسانية وحدود إمكاناتها التي ركبها الله تعالى في الإنسان، وتأسيساً للنظرية الأخلاقية حول مفهوم الشجاعة.

المبحث الثاني: حيثيات مفهوم الشجاعة واشكالاته

يشير المعنى اللغوي لمفهوم الشجاعة إلى مصدر كلمة (شجع) أي صار شجاعاً وهو مأخوذ من مادة (ش ج ع) التي تدل على الجرأة والإقدام، قال ابن فارس: ومن ذلك قولهم الرجل الشجاع وهو المقدام[2] اما ابن منظورٍ فقد خصص هذا الإقدام واعتبره شدة القلب في البأس، وقال:إن شجع بمعنىٍ اشتدَّ عند البأس[3] وبمثل ذلك قال الجوهري في معجم الصحاح، وأضاف: إن فلاناً قد تشجع؛ أيٍ تكلّف الشجاعة، وشجعته: إذا قلت له أنت شجاع أو قويت قلبه، ورجل شجيع وقوم شجعان مثل: جريب وجربان[4] فيتضح بذلك استقرار تعريفات اللغويين بين كونها الإقدام الذي يكون باعثه الجرأة،وبين ثبات القلب الذي يكون باعثه الشدة.

وفي الاصطلاح لم يبتعد المعنى كثيراً عن دلالته اللغوية، فقال المناوي إنها: الإقدام الاختياري على مخاوف نافعة في غير مبالاة، لكنه أضاف معنى آخر للشجاعة نقله ولم يعلق عليه وقال إنها" هيئة حاصلة للقوة الغضبية بين التهور والجبن، بها يقدم على أمور ينبغي أن يقدم عليها كقتال كفار لم يزيدوا على ضعفنا"[5] أي أن الفرد لا يقاتل

---

(1) ابن العربي، العواصم من القواصم، ص255.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، 3:247.

(3) ابن منظور، لسان العرب، 8/ 173.

(4) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (3/1237-1235).

(5) المناوي، التوقيف على مهمات التعريف، ص202.

أكثر من اثنين، ويبدو أنه استفاد من الجرجاني في كتابه (التعريفات) الذي قرر نفس المعنى[1] ويتضح من هذا المعنى تشكل مفهوم الشجاعة وخصوصيته الدينية وارتباطه بالجهاد في سبيل الله، أما باحثو موسوعة نضرة النعيم الأخلاقية فقالوا أنها: الصبر والثبات والإقدام على الأمور النافع تحصيلها أو دفع الأمور الضارة، وتكون في الأفعال والأقوال[2] ويتضح من خلال ذلك تواطؤ المعنيين في اللغة والاصطلاح، وهو الثبات عند الملمات، سواء عرضت له المواقف الشديدة والصعبة أو تعرض لها بنفسه، لكن هذا الثبات يكتسب حداً جديداً في المنظومة الأخلاقية، فالثبات يكون في القلب بالصبر والمجالدة وهي صورة الشجاعة الباطنة، كما كان الثبات بالأجساد والأقدام وهي الصورة الظاهرة للشجاعة، ومن هنا نستطيع أن نقول أن القلب يمثّل أساس هذا الخلق، وسنصوغ من خلال هذه المعطيات نظرية (التعاهد) التي تفسر مفهوم الشجاعة في منظومة الأخلاق الإسلامية.

نظرية التعاهد الإيمانية وتأسيس مفهوم الشجاعة الأخلاقي

يعرف مفهوم العهد في الشرع بأنه حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال كما ورد في القرآن الكريم[3] وقد تناولت العديد من الآيات القرآنية هذا المفهوم الذي يعتبر أخص المفاهيم الأخلاقية، يقول تعالى (وأَوفوا بالْعهد إِنَّ الْعهد كان مسؤُلًا) (الإسراء: ٣٤) أي: أوفوا بحفظ الأيمان، لذلك سنستثمر هَذاَ المفهوم في صياغة نموذج مفهوم الشجاعة وفقاً لنظرية التعاهد التي تعني: الثبات في حفظ الإيمان بين العبد وربه عند تقابل جلب المصالح ودفع المضار، وهذا يتطلب تحرير مفهوم الشجاعة في منظومة الأخلاق الإسلامية وبناء أسس هذه النظرية التي تقوم عليها فلسفة الشجاعة وفقاً لثلاثة مقامات أخلاقية، ومتى ما اختل ركن من هذه الأسس خرجت به من معهود الخلق المحمود إلى الخلق المذموم وهذه الأسس هي كالتالي:

1- الشجاعة الباطنة (ثبات القلب) هي محرك الشجاعة الظاهرة (ثبات الأقدام) وهو مقام الثبات وهي عهد مع النفس

2- قصد التقرب في الشجاعة بالنية الأخلاقية، وليس الحمية وهذا مقام الإخلاص، وهي عهد مع الله تعالى

---

[1] الجرجاني، التعريفات، ص125.

[2] ابن حميد، نضرة النعيم، 2322/6

[3] الراغب الاصفهاني، المفردات في غريب القران، 591-592.

3- التكامل بين عالمي الغيب والشهادة وهو مقام الإيمان، وهي اقتران العهدين (مع النفس ومع الله تعالى).

وسوف نقوم بشرح هذه النظرية وفق أسسها الثلاثة كالآتي:

1- الشجاعة الباطنة (ثبات القلب) هي محرك الشجاعة الظاهرة (ثبات الأقدام).

يمكن من خلال أقوال علماء اللغة واصطلاح الفلاسفة والأصوليين أن نتبين اتفاقاً واضحاً في تعريفهم للشجاعة، فكانوا يتحاشون تعريفها بالإقدام المطلق في المواقف الصعبة، أو قوة الإنسانِ الجسدية، فالشجاعة في حقيقتها لا تعتمد على القوة أو الإقدام في كل الأحوال، ولا تعد شجاعة أن يتجرد الإنسان من كل خوف؛ فربما أصبح وجوده فضيلة وغيابه منقصة؛ ذلك أن الخوف عند الملمات الضخام التي تتعلق بمصلحة الفرد أو المجتمع وتفتقر إلى رأي قاطع وسريع هي إحدى الفضائل المعتبرة، وإن كانت هذه الحقيقة غائبةً عن أفهام الآخرين، وقد لاحظ ابن القيم أحد منظّري الفكر الأخلاقي الصوفي أن كثيراً من الناس تشتبه عليه الشجاعة بالقوة وهما متغايران، ليقرر أن " الشجاعة ثبات القلب عند النوازل وإن كان ضعيف البطش[1].

ومما يدعم هذا الموقف الذي نتبناه آيات القرآن الكريم العديدة في تناول معاني الشجاعة التي يحثّ عليها أو يرغب فيها، فهو يدعو إلى الثبات الفردي وتثبيت الآخرين، قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا) (الأنفال:45) كما يثبت الله تعالى ويعين السائرين في مراده (فثبتوا الذين آمنوا) (الأنفال:12) ثم يأتي القلب حاضراً في المشهد الخلقي لفعل التثبيت القلبي (كذلك لنثبت به فؤادك) وفعل الثبيت العملي (ربَّنا أَفْرِغْ عَلَينا صبرا وثَبِّتْ أَقْدامنا) (البقرة:250) وحين تبدأ بوادر الشجاعة وفقاً للمقاصد الأخلاقية يتممها الله بالنصر (يا أَيُّها الذين آمنوا إن تنصروا اللَّه ينصركم ويثبت أَقْدامكم) (محمد:7) فلم يورد القرآن الكريم مفردةَ مرادفة لَ(الشجاعة) إلا على معنى الاطمئنان والثبات في مواقف القتال ومعترك الجهاد، **فثبات النفس عند وقوع المصائب** هو حقيقة الشجاعة إذاً، أو كما قال ابن العربي بلفظ آخر :هي **ثبوت القلب** عند تعارض المضادات والمرجوات[2].

---

[1] ابن القيم، الفروسية المحمدية، ص500.

[2] ابن العربي، قانون التاويل، (438/1).

فيتبين إذاً أن ضبط مخاوف النفس ومراداتها المرغوبة التي تعيق التفكير والقدرة على الموازنة بينها تكسب الشجاعة والجرأة، ولذلك حين فرق أبو هلال العسكري[1] بين الشجاعة والبسالة، اعتبر الشجاع هو الجريء المقدام في الحرب ضعيفاً كان أو قويًّا، والجرأة قوة القلب الداعي إلى الإقدام على المكاره، أما البسالة فتنبئ عن الشدَّة[2] فلم تتوسل الشجاعة بالقوة المجردة وإنما على خوض غمار المخاطر، بينما البسالة كانت لا تقوم إلا على أس الشدة فهو أصلها ومادتها.

ولو أردنا أن نحدد نموذجاً نحتكم فيه إلى معيار الشجاعة الحقيقي، لوجدناه مجسداً في أشجع الخلق جميعاً نبينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال عنه القرآن الكريم (وإنَّك لَعلى خُلُقٍ عظيمٍ) (القلم:4) فإنه لم يقتل –طوال بعثته –سوى أُبي بن خلف وذلك في غزوة أحد، على الرغم من أن بعض صحابته قد قتل ما يناهز مائة رجل مبارزة كالبراء بن مالك، لكن ثبات قلبه كان مضرب المثل في الشجاعة، وكان إذا اشتدت الحرب وتلاحمت الجيوش احتمى الصحابة به، فيكون أقرب إلى العدو منهم حتى أن أشجعهم من يقترب منه أو يحاذيه، وقد تفرق بعض أصحابه رضوان الله عليهم حين حمي الوطيس في غزوة حنين وهو ثابت على بغلته يحدو:"أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب"[3] ثم يأتي بعده في الشجاعة أبو بكر الصديق رضي الله عنه على الإطلاق، ومن شواهد ذلك قوة عزيمته في قتال مانعي الزكاة عند تولّيه خلافة المسلمين ماضياً في إرادته حتى حين عارضه عمر بن الخطاب وتصدى له الصحابة، ومن ذلك صحبته للرسول في غار حراء، وثباته في أصعب معركتين: بدر والخندق، ورباطة جاشه في غزوة حنين حيث تفرق الناس، وقد كان السائد من أخلاقه السهولة والمرونة في تعامله مع الآخرين، وفي هذا دلالة على أن الشجاعة تقتضيها المواقف المختلفة وليست إقداما على كل حال حتى قال ابن تيمية أن أبا بكر حين تولى الخلافة أصبح كاملاً في الولاية واعتدل منه ما كان ينسب فيه من لين[4].

---

(1) أبو هلال العسكري واسمه الحسن بن عبد الله بن سهل واحد من أئمة البلاغة وعلوم العربية خلال القرن الرابع الهجري وصاحب كتاب الصناعتين، (معجم الأدباء لياقوت الحموي، 2/918).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص108.

(3) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، رقم الحديث 1776.

(4) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، 257/28

وإذا تبين هذا اتضح أنّ الشجاعة صفة تتعلق بالقلب، لذلك فإن الرجل قد يكون بدنه أقوى الأبدان- كما يقول ابن تيمية- وهو من أقدر الناس على الضرب والطعن، لكنه ضعيف القلب وجبان، وقد يقتل بيده خلقاً كثيراً، وإذا دهمته الأمور الكبار مالت عليه الأعداء، فيضعف عنهم أو يخاف[1] وقد قال المتنبي مصداقاً لهذا المعنى[2]:

ولكن إذا لم يحمل القلب كفّه... على حالة لم يحمل الكف ساعدُ

2-قصد التقرب بالنية وليس الحمية

من يستقرئ مواطن تفضيل الشجاعة في المنظومة الأخلاقية يجد أنها لا تحمد إلا في مقاصد الشارع التي أرادها وهي خمسة مقاصد: حفظ الدين،وحفظ النفس، وحفظ العرض، وحفظ العقل، وحفظ المال، فتعتبر الشجاعة بسبب هذه الضرورات الخمس محمودة وفي غيرها عملاً شجاعاً لكنه ليس محموداً ولا مقصوداً، فهي لا تسلب منه الصفة لكنها تنزع منه الفضيلة، وهي معادلة دقيقة تبنى على مبدأ المصلحة الأخلاقية المضطردة وفق معيار الشرع وليس معيار المنفعة الفردية، ونستطيع أن نقول أن اختلاف التصورات بين مفهوم الشجاعة في نظرية التعاهد عن غيرها من الفلسفات آل بنا إلى هذا التقعيد، فالشجاعة لا يمكن أن تقوم إلا وفق هذا العقد الإيماني (التعاهد) وإلا يبطل موضوعها وأثرها وجزاءها، فهذا التعاهد هو الأساس الذي يعطي الشجاعة مشروعيته الأخلاقية، لذلك جعل ابن حزم أن من بواعث الشجاعة "بذل النفس للموت عن الدين والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلما في المال والعرض وسائر سبل الحق، سواء قل من يعارض أو كثر، والتقصير عما ذكرنا جبن وخور، وبذلها في عرض الدنيا تهور وحمق"[3].

وهذه المقاصد المحمودة هي إلزام إلهي متعال لا يستمد من واقع المجتمع أو قواعد الواجب، بل هو الأساس التوحيدي للأخلاق، فلا معنى للشجاعة في المنظومة الأخلاقية متى خرجت عن هذا الأساس، وقد نبه عليها نبيا محمد صلى الله عليه وسلم إلى ذلك حين جاءه رجل فقال: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء، فأنى ذلك في سبيل الله؟ قال: " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله "[4] فوضع ميزان

---

(1) ابن تيمية، جامع الرسائل، 3/247. 249.

(2) البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ص380

(3) ابن حزم، مداواة النفوس، 1/352

(4) صحيح ابن حبان، باب فضل الجهاد، رقم الحديث(4636)

هذا الخلق وهو أن يكون باعثه مراد الله،وهذا ليس قدحاً في هيئة الشجاعة، فالمجاهد ما قاتل إلا لشجاعته، لكن الشريعة الأخلاقية حجمت صورة العمل المجردة من النية الأخلاقية، فمتى ما انخرم منها هذا الشرط تردت في أسفل قيم النفاق والكفر، ذلك لو افترضنا أن إنساناً أراد أن يكتسب منفعة عظيمة في الدنَيا لكن قد تكلفه مهجته لأخطارها؛ فإننا سنصم هذا الإقدام قطعاً بأنه في غاية الحمق والسفاهة.

لذلك كان ملاك الشجاعة: الجهاد في سبيل الله، فهو يفتقر إلى ملكة غير القوة البدنية إنما تتعلق بالتصورات والأفكار، يقول ابن علان " أن القتال في سبيل الله قتال منشؤه القوة العقلية لا القوة الغضبية أو الشهوانية"[1] ويبدو أنه يقصد بذلك إرادة مراد الله وإخلاص النية له والتفكر في الجزاء والمصير والمقارنة بين النصر وما ينتج عنه من غنائم ونشوة، وبين الشهادة وبلوغ رضا الرب وما ينتج عنه من التنعم بالجنة، فالشجاعة في الجهاد إذاً تعتمد على القوة المنطقية وما تنطوي عليه من تفريد العمل للرب وليس القوة الغضبية المجردة، وقد استحق شجعان الصحابة التحلي بهذا الخلق لأنهم قصدوا بها رفع راية الجهاد في سبيل الله وليس لما لديهم من الثبات والإقدام وقوة الشكيمة، لذلك كانت الشجاعة فضيلتها في الدين لأجل الجهاد في سبيل الله – وفقاً لإبن تيمية– وإلا إذا لم يستعن بها صاحبها على الجهاد في سبيل الله، كان إما وبالا عليه إن استعان بها صاحبها على طاعة الشيطان، وإما غير نافعة له إن استعملها فيما لا يقربه إلى الله تعالى"[2] وهذا ما دل عليه التعريف عند العلماء عندما عرفوه اصطلاحاً – كما سبق– بأنه إقدام على أمور ينبغي أن يقدم عليها كقتال كفار لم يزيدوا عن الضعف، ولا يعذر الجبان في المواقف التي تتطلب ثباته، لكنه قد يزيد أجره تعويضاً لهذا النقص، وقد ورد في الأثر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم قوله"للجبانِ أجران"[3].

وحين تعرض ابن العربي لتفسير قوله تعالى (يا أيها الذين امنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا) (الأنفال:45) رأى أن أقوى دلالاتها الثبات بالقلب والذكر باللسان؛ فإن القلب قد يسكن عند اللقاء، ويضطرب اللسان؛ فأمر بذكر الله حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر، وقال: إن ذلك يكون عن قوة المعرفة، ونفاذ

---

[1] الصديقي، دليل الفالحين، (75/1).

[2] ابن تيمية، منهاج السنة، 8/86.

[3] أخرجه ابن أبي شيبة في ((مصنفه)) 579/7.

القريحة، واتقاد البصيرة، وهي الشجاعة المحمودة في الناس[1] ومسألة ذكْر الله عند مواقف البطولة ذكرها عدد من الأخلاقيين وأثرها الفاعل في طرد الشياطين التي تعتبر سبباً رئيساً في التثبيط فهو يخوفهم ويخنسهم ويحملهم على الفرار كما يقول ابن القيم [2] لذلك حين جاءت الآية القرآنية (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ) (الأنفال:12) دلتَ عَلَى أن المعيةَ الربانية تستدعي تَزكيةَ في الطَبيعَة الإنسانية والهيئة الخلقية الراسخة في النفس، فيتحول الجبن الى شجاعة والخوف الى أمن، لأن ظروف المهمة تستلزم طاقة مسددة تتغلب على الموقف الحرج، ولأن المقصد هو اعلاء كلمة الله كانت النتيجة النصر مع تكريم بعض المشاركين بالشهادة والقتل في المعركة وهذه جزاءها أعظم وأعلى.

3- التعاضد بين عالمي الغيب والشهادة

للشجاعة مصدر حيوي يقويها ويمثّل النبع الذي تمتَح منه ثباتاً حقيقاً وخلقاً مرعياً، وهذا المصدر هو الإيمان بالله تعالى وكل ما يتصل بعالم الغيب (الملكوت) وهذا المصدر يتطلب تكاملاً من عالم الشهادة(الملك) فيما يتعلق بالمعرفة وشروطها، فلا يمكن للشجاعة أن تتمظهر الشجاعة في الأفعال دون اليقين بالجزاءات الحسنة عليها، لذلك قال الفقيه والأصولي عبدالرحمن السعدي أن مصدر تقوية الثبات في القلب بثبوته وقوته وسكونه عند المهمات والمخاوف :الإيمان، وقوة التوكل على الله، وكمال الثقة به سبحانه وتعالى [3] فالايمانِ بالله تعالى يورث القلب طمأنينة وسكينة تحرضه على خوض أقسى المخاوف هلكة وشدة، بل والتسليم بكل الآثار التي يتمخض عنها ثباته، كما أن الإيمان باليوم الآخر وترسيخ عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر سواء كان خيراً أو شراً يقوي النفس في مواجهتها المخاطر المحتملة، لذلك كان القرآن الكريم صريحاً في تقرير هذه الحقيقة (يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ)(آل عمران:154) فمن قدر أجلَهَ سيتوفَى سواء كانَ فيَ المعركَة أو وهوَ مضطجعَ فَي فراشه حتى تحولتِ مقولة أبي بكر الصديق: إحرص على الموت توهب لك الحياة، حكمة بل قاعدة تمد القلب بمدد الثبات والرسوخ في سبيل تحقيق معنى الشجاعة، وكما يقول المستشرف الياباني توشيهيكو ايزتسو في

---

[1] ابن العربي، أحكام القران(414/2)

[2] ابن القيم، السماع، ص388.

[3] السعدي، الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، 1426.

دراسته الاستشراقية عن (المفهومات الدينية الأخلاقية في القرآن) أن هذه الشجاعة هي ضرب جديد تماماً من البسالة العسكرية صادر عن إيمان راسخ بالله واليوم الآخر[1].

فالايمان هو الروح الدينامية التي تحرك الجسد، فإن الجسد مهما بلغت قوته لا يمكن أن يحرك شيئاً ما لم يدفعه شعور نفسي وقوة باطنية تبتغي هدفاً وتضع في تصورها رغبة توحيدية، لذلك لم يكن غريباً أن الروح الإيمانية اذا تعاضدت مع الجسد الشجاع فانها تضاعف الرقم 1: 10، كحد أعلى، ومن ذلك ما جاء به الأمر الإلهي (يا أَيُّها النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ۚ إِنْ يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (الانفال:65–66) فمع الإيمان المشروط بالصبر يزيد منسوب القوة طردا ونتيجة، ومع نقص الإيمان والتجلد تضعف القوة لكنها لا تعدم، فإن ضعفت فإن المؤمن الشجاع يصبح بمقدوره قتال رجلين كحد أدنى للثبات، فتصبح النسبة 2:1، فتغير الظروف يجعل أداء بعض الواجبات أعسر وأشق على النفس ويجعلها تقيس إرادتها بين الحدين الأدنى والأعلى، تقول الآية الكريمة (الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (الأنفال:66) فإذا كان هذا الآخر يفتقد هذا الشرط الأخلاقي (فهم لا يفقهون) لأن شجاعتهم الحربية لم تصاحبها غايات بعيدة ولا مقاصد نبيلة:(الفوز بالجنة، إخلاص النية، سبيل الله) وإنما النعيم الذي يدركونه هو النعيم الدنيوي، وإشكالية هذا النعيم أنه ينقطع بالموت في الحرب، فتظل خيارات المعركة محدودة وضيقة لأنها بلا أثر ولا سيرورة.

كما تبنى الشجاعة على أمر في غاية الأهمية وهو الأصل الثاني في قضية الثبات والإقدام على مواجهة المواقف العظيمة وهو امتلاك أدوات الملك (عالم الشهادة) من خلال المعرفة والتدريب على معاني البطولة والاستعداد لمواجهة المخاطر الخارجية، لحماية المجتمع وعقيدته من الخارجين عن القانون، فالمعرفة شرط لكل فضيلة، فكلما زادت معرفة الانسان ازدادت فضيلته،وهذه المعرفة خاصية ثابتة في كل الفلسفات الإنسانية تستلزم وجودها قبل اتخاذ المواقف المعبرة عن الشجاعة، لذلك نجد أن الشجاعة عند فلاسفة اليونان كسقراط وأفلاطون بمثابة معرفة يقينية – كما أشار عبدالرحمن بدوي– أي أنها علم بالاشياء المخيفة، ولا تكون إلا مصحوبة بالفطنة[2] فتستلزم الشجاعة إذا هذا الشرط لأن

---

[1] ايزتسو، المفهومات الدينية الأخلاقية في القرآن، ص196.

[2] بدوي، الأخلاق النظرية، ص178

المرء كما يقول ابن العربي إذا اعترضه أمر وكان جاهلاً به أو ذاهلاً غير محصل له فإنه سيرتبك وسيضطرب، فلا يهتدي إلى حل مشكلة ولا يتبصر وجه كشفها، لذلك كان مفهوم الجبن هو: نقصان التصرف الملائم واضطراب المواجهة، مواجهة الموقف بسبب ما طرأ عليه من الآفات المفاجئة التي تجعل حركة المواجهة صادرة عن جهل، ويؤدي ذلك إلى تصرف غير مناسب، وغير موافقٍ لما يتطلبه الموقف الجديد المفاجئ[1].

وقد كان القرآن الكريم مباشراً في عزو الشجاعة إلى الاستعداد بقوة العتاد والعدد، قال تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) (الأنفال: 60) فالشجاعة تتطلب معرفة المآلات والتخطيط المسبق في معارك القتال، وإذا صاحب ذلك التدريب العملي كان من أنجع الطرق لاكتساب خلق الثبات وهذا ظاهر بالملاحظة، فأصحاب المهن الخطيرة كربان السفينة ومروضي الأفاعي والأسود أقدر من غيرهم على ممارسة مهنهم دون أن يخطر في أذهانهم خوف أو رعب لما امتلكوه من المهارة والخبرة والدربة، خلافاً لغيرهم الذين يتهيبون ممارسة ذلك لأول وهلة، لذلك كان من أدوات تفعيل هذا المفهوم تعلّم مهارة الرمي وإجادته حتى قال صلى الله عليه وسلم: ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي[2] فالشريعة الأخلاقية تحض على تملّك أسباب الشجاعة واليقظة للمخاطر المحتملة ولو كان ذلك على سبيل اللعب والترفيه [3] حتى لا يفقد مهارته التي تساعده، فقد يحرم الانسان شجاعته بفقدان أسبابها من المهارات القتالية وحيل الدفاع علن النفس.

ويتضح مما سبق دلالات هذا المفهوم في الشريعة الأخلاقية، وسمة الأعمال التي يطلق عليها (شجاعة)، في أعلى كمالاتها كالجهاد والدفاع عن مقاصد الدين الضرورية، فأضحت الشجاعة تستدعي إلى جانب المعرفة شرط المقصد الإيماني وهو عالم الملكوت(الغيب)، فإذا فقد شرطه الجديد فقد فاعليته وأضحى سلوكاً مجردا مرتبط بعالم الملك (الشهادة) لا تعترف به الشريعة الأخلاقية ضمن فضائلها، وهذا الشرط مرتبط بعالم الملكوت يدور معه وجوداً وعدماً، فالايمان ذلك الشعور النفسي والقوة الباطنية التي تضع غايتها توحيد الله، فإذا تحقق فقد أُعطي مقاماً أعلى وهو مقام (الثبات) وإذا أخفق في تحقيق شرطه بقي على رسم (الشجاعة) وبذلك تكون الشجاعة وفقاً لنظرية التعاقد:

---

[1] طالبي، آراء ابن العربي الكلامية، 1-2.

[2] صحيح مسلم، كتاب الامارة، رقم الحديث 1917.

[3] رغبت الشريعة الأخلاقية في التعلم المستمر ولو على سبيل اللهو وتزجية الوقت اهتماماً بهذه القيمة الخلقية، قال صلى الله عليه وسلم مقررا ذلك "ستفتح عليكم أرضون، ويكفيكم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه"(صحيح مسلم،، رقم الحديث 1918).

الثبات في حفظ الإيمان بين العبد وربه، كما يمكن أن نقترح نموذجاً للشجاعة يفسر حقيقتها في منظومة الأخلاق الإسلامية كما في الشكل التالي (الشكل 2).

نوع الشجاعة	المقصد	الآثار والجزاء	المكانة التراتبية
فضيلة الثبات	**سبيل الله** (الجهاد وحفظ المقاصد الخمسة)	اقتران عالم الشهادة وعالم الغيب طلب (العاجلة والآجلة) وفي الآية القرآنية (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) إلى قوله (فاصبر إن العاقبة للمتقين).	أشرفها مقاما وأعظمها نفعاً
خلق الشجاعة	**الحياد الأخلاقي** (ضروب الحياة المختلفة دون تحديد المقصد)	وهي الشجاعة المجردة حيث تمدح كأصل أخلاقي فاضل سواء كان طبعاً او اكتساباً لأن فيه تهذيب لطبيعة النفس البشرية ولكنه يفتقر الى مقامات أعلى ومن اعتمد على هذا الأصل ولم يطوره فقده	أقل مقاما غير نافعة
سلوك الشجاعة	في طاعة الشيطان والهوى والنفس	وهي الشجاعة التي تبتغي خدمة أحد الأغراض الثلاثة وهي لا تدخل ضمن منظومة الأخلاق الإسلامية ولا حتى دائرة القيم الأخلاقية.	اسوأها مقاما وهي وبال

الشكل (2).

المطلب الثالث: تعالقات مفهوم الشجاعة بالمنظومة الأخلاقية

لما كانت الشجاعة عماد الفضائل؛ فإن هذا أعطاها الحق في تبوأ مكانة مركزية ذات وشائج متجذرة ببقية الفضائل، حتى عد الكمال الأخلاقي يتوقف على وجودها في النفس، وهذا ما يجعلنا نفحص هذه العلاقة ببقية الأخلاق المركزية، وهي: الصبر، والكرم، والحكمة، وأطلقت عليها مسمى المعاني الأخلاقية وذلك لأنها في حقيقتها وجهان لسجية واحدة، فقد تختلف المسميات الأخلاقية إلا أن صفاتها ومعانيها تتشابه في الواقع، فالشجاعة ماهي إلا التزام الصبر والحلم في الشدائد، كما أن حقيقة الشجاعة عطاء روحي ذلك أن البطل يجود بنفسه كما يجود الكريم بماله، ولولا الحكمة عند الشجاع لما كبرت همته ودعته للمعالي، لذلك أوجب أبو حامد الغزالي معرفة حقائق المفاهيم الأخلاقية قبل النظر إلى مسمياتها لأن هذه الأسماء ما وضعت إلا لتدل على المعاني[1] فجعل بذلك المعنى أصلاً للمفهوم الأخلاقي واللفظ تابع له فلم ينحصر المعنى في المسمى الأخلاقي، وإن كان بعض علماء الكلام قد عد المعاني داخلة في أقسام المفهوم الأخلاقي، أما عضد الدين الإيجي وهو من أوائل من صنف

[1] الغزالي، إحياء علوم الدين، 4/67.

في المباحث الأخلاقية[1] فقرر أن المفهوم أوسع من المعنى، وطبق هذه النظرة في تناوله لمفهوم الشجاعة، فجعل الفضائل الأخلاقية أقساماً تحتويها حقيقة الشجاعة وقسمها إلى إحدى عشر شعبة[2] وهذه الشعب هي: كبر النفس، عظم الهمة، الصبر، النجدة، الحلم، السكون، التواضع، الشهامة، الاحتمال، الحمية، الرقة، فدل هذا التقسيم على حقيقة الشجاعة، وأنها تتمثل في عدة صور، والواقع أن المسميات الأخلاقية قد تختلف إلا أن أحوالها تتشابه بل تتطابق فيما بينها كما ذكر الغزالي وهذا ما ستتكشف معالمه في الروابط التي تنشأ بين هذه المفاهيم والتعالقات التي تتداخل فيما بينها حتى لتشكل وحدة موضوعية في منظومة الأخلاق الإسلامية.

وحتى نستظهر علاقات الشجاعة من أجل خلق كامل يتسم بالمقامات الثلاث: الثبات، والإخلاص والإيمان التي قامت على الأسس الفلسفية للشجاعة، فإنه يجب أن يكون هناك سبر وتقسيم لمعرفة خصائص وصفات هذه المعاني المركزية وهي: الصبر ،والكرم، والحكمة، وكشف دلالات العلاقة الأخلاقية المتشابكة بينها من جهة وبين الشجاعة من جهة أخرى، ورصد وجوه المشاكلة والتشابه فيما بينهم.

1- طبيعة التعالق بين الصبر والشجاعة

خلق الصبر هو الأصل الأخلاقي الذي تبنى عليه الشجاعة، فلا يحصل ثبات في القلب إلا بالصبر، وفي ذلك قال تعالى (كَم من فئة قَليلَة غلَبت فئَة كَثيرة بإذْن اللَّه واللَّه مع الصَّابرين) (البقرة:249) فقد تغلّبت الشجاعة عَلَى معوقاتها حَين اَستمدَت مادتَها من الصبر عَلَى هذا القتال، فلا يصل الشجاع إلى مقام الثبات إلا بمداومته على هذا الخلق، فيزيد بزيادته وينقص بنقصه وذلك لأنه يعصمه من التهور كما يقيه من الخذلان،حتى أضحت الشجاعة متولدة من الصبر كعلاقة أبوة واستمداد، ومن ذلك ما أطلق على الشجاعة أنها صبر ساعة؛ لأن الرهان على **الوقت في ثبات القلب**، فكلما ثبت القلب تحول إلى هيئة راسخة في النفس، حتى عرُّف الصبر بأنه: ثبات القلب عند موارد الاضطراب[3].

---

(1) عبد الرحمن بن أحمد الإيجي قاضي القضاة عضد الدين الشيرازي، كان إماما في المعقولات عارفا بالأصلين والمعاني والبيان والنحو مشاركا في الفقه له في علم الكلام كتاب المواقف وغيرها.طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (10/47-46) له كتاب المختصر في علم الأخلاق.

(2) الإيجي، المختصر في علم الأخلاق، ص4-5.

(3) ابن القيم، عدة الصابرين، ص 18.

وقد اعتبر الصبر نصف الإيمان، ذلك أن الإيمان مركب من صبر وشكر، وإن كان الصبر يمثّل منزلة الرأس من الجسم، ولهذا قال تعالى: (إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) (إبراهيم: 5) وهو بذلك يلتقي مع أحد مقامات الشجاعة وهي الإيمان، وحتى تكتمل ثمرة الشجاعة بالنصر فإن ذلك يستلزم تضافر الصبر مع حسن الظن ليزداد ثباتا، ذلك أن الاعتقاد الدائم بالنصر سيفضي به إلى ثقة في قدراته المعنوية والحسية، لهذا يقول ابن القيم: فإنه متى ظن الظفر وساعد الصبر ثبت[1] لذلك فإن الجبن لا يتولد إلا من افتقاد هذين الشرطين:الصبر وحسن الظن بالنفس، حتى وصفت هذه الخصلة بيولوجياً أن الظن إذا ساء في الانسان ووسوست النفس بالسوء انتفخت رئته، وزاحمت القلب في مكانه وضيقت عليه حتى حركته عن مستقره، فانعكس هذا الاضطراب على القلب فأصيب بالخوف والخشية [2].

فالشجاع حين يفتقد الصبر وتحمل المشاق تتحول شجاعته إلى جبن وهزيمة، وذلك عند حلول بوادر الآلام لأنه لا يتحمل تبعات الخلق الكريم ولا يطيق أثره، لذلك كان الصبر مطلوباً للشجاعة كشرط مبدئي ووجودي وكمالي، فلا تقوم الشجاعة دون أن يعضدها الصبر على تحمل المخاطر المفترضة، وفي ذلك تتفاوت أقدام الناس في تحلّيهم بالمصابرة وتمثّلهم لها كما يتفاوتون في غرائزهم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم:" شر ما في رجل شح هالع وجبن خالع"[3] تحذيراً من هذه الرذيلة وتوابعها، فكما أن الشجاعة تستلزم التحلّي بالصبر والكرم والحكمة فإن الجبن يقتضي التخلّي عنها بل والاتصاف بما يناقضها من الجزع والبخل والجهل. وبهذا تتضح العلاقة الوجودية بين الصبر والشجاعة والقدر الكبير من التشابك فيما بينهما، بل ونبهت هذه العلاقة إلى علاقة مشاكلة أخرى وهي تولّد الخلقين من مصدر واحد وهي قوة الدفع الغضبية التي أنتجت أكمل خلقين فيهما وهما الصبر والشجاعة.

2- طبيعة التعالق بين فضيلتي الكرم والشجاعة

وكما أن الصبر يتعالق بالشجاعة؛ فإن أخلاقاً كالكرم والجود لا يمكن أن تتجلى في الطبيعة البشرية إلا بقوة الشجاعة أيضاً، على الرغم من تقابل القوتين التي ينطلق منهما الخلقان، فالشجاعة تصدر من قوة الدفع وما تشتهر به هذه القوة من اليبوسة

---

[1] ابن القيم، الروح، (664/2).

[2] نفس المرجع (2/ص665).

[3] سنن أبي داود، كتاب الجهاد، رقم رقم الحديث 2511.

والصعوبة، فيما يصدر الكرم من قوة الجذب والشهوة التي تصدر من اللّين والسهولة، الأولى طالبة والأخرى مطلوبة، وهكذا تتضافر هاتان القوتان لتوليد هذا الخلق كأنهما إخوة لعلّات كما اتحد قبلهما الشجاعة والصبر في هيئة واحدة.

إن هيمنة الشجاعة على الأخلاق جعلت خلق الكرم يتوقف عليها حتى أنه لا يكتسب إلا بها، ودلل أبو بكر الطرطوشي الذي صاغ نظرية في فلسفة الاجتماع البشري في كتاب (سراج الملوك) على ذلك بقوله " ألا ترى أنك إذا هممت أن تمنح شيئاً من مالك خار طبعك، ووهن قلبك، وعجزت نفسك، فشححت به، وإذا حقّقت عزمك، وقويت نفسك، وقهرت ذلك العجز، أخرجت المال المضنون به، وعلى قدر قوة القلب وضعفه تكون طيبة النفس بإخراجه، أو كراهية النفس لإخراجه مع إخراجه "[1] لذلك فإن هذه العلاقة تتداخل مع بعضهما البعض فتصبح الشجاعة معياراً على **الكرم الواسع**، ويضحي الكرم أحد مظاهر الشجاعة والرجولة، ويمكن أن نحدد هذه الصورة الأخلاقية في هذه المعادلة البسيطة:

إذا كان **البذل بالأموال** فهو = كرم.

وإذا كان **البذل بالنفوس** فهو = شجاعة.

فالأصل واحد في المنظومة الأخلاقية الإسلامية وهو رغبة عطاء تنبعث من القلب،سواء كانت في صورة حسية مادية أو بصورة معنوية عن طريق التضحية بالنفس، وبهذا عبر شاعرهم[2]:

وندعو كريماً من يجود بماله ومن يبذل النفس الكريمةَ أكرم

ولعل هذا يكشف قدراً كبيراً من الترابط الفلسفي بين الأخلاق الإسلامية وجذورها العربية، والباحث في تاريخ الأخلاق لا يجد صعوبة في إثبات مدى وقوة هذه العلاقة المصدرية في التراث العربي – شعراً ونثراً وخطباً – وأكّدها حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: إنما بعثت لأُتمم صالح الأخلاق[3].

ويمكن القول إن تخلّي المجتمعاتَ عن هذين الخُلقين اللّذَين تقوم بهما مصالح البشر الاجتماعية ومنافع الحياة الاقتصادية يقتضي تغييراً إلهياً في أفرادها، فتستبدل بمن يتحلّى بهما سلوكاً وأثراً، ذلك أن الشجاعة والكرم سببان لصلاح هذه المجتمعات

---

(1) الطرطوشي، سراج الملوك، (2/ 668- 670).

(2) أبو فراس الحمداني، الديوان،،ص294.

(3) الألباني، السلسلة الصحيحة، رقم الحديث 45.

في عالمي الغيب والشهادة، فمن ترك الجهاد أقام الله من يقوم به، ومن منع ماله جيبء من ينفقه، قال تعالى(يا أَيُّها الَّذِين آمنوا ما لَكم إِذا قِيل لَكم انفروا فِي سبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتم إِلَى الْأَرضِ ۚ أَرضِيتم بِالْحياةِ الدُّنيا مِن الْآخِرةِ ۚ فَما متَاع الْحياةِ الدُّنيا فِي الْآخِرةِ إِلَّا قَلِيل (38) إِلَّا تنفروا يعذِّبكم عذَابا أَليما ويستبدِل قوما غيركم ولَا تضرُّوه شَيئا(39) (سورة التوبة: ٣٨، ٣٩) فاستباحة الأمر الأخلاقي والتهاون فيه أعظم من مفسدتي الموت والفقر، كما أن الجزاء على اكتسابهما أعظم نفعا وصلاحا وإن لم يتبين ذلك في عالم الشهادة، وهذا ما يجعل اقتران عالمي الغيب والشهادة في امتثال الشجاعة على قدر عال من الأهمية.

وإذا كا ن من آثار هذين الخلقين على الإنسان بلوغه اللذّة والسرور جزاء إرادته الفاضلة، فإن الرذيلتين المقابلتين لهما وهما الجبن والبخل لاشك أنهما تسببان الألم والحزن، لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ بهما مقترنان[1] فالجبن في حقيقته خوف من زوال الأمور النافعة، والبخل في حقيقته خوف من حصول الأمور الضارة، ومع اقتران الفضيلتين ببعضهما، فإننا لا نستطيع الجزم أيضا بتفضيل أحدهما على الآخر على الرغم من أن الجود أحد أسماء الله الحسنى وصفاته العلى فيما لايوصف عز وجل بالشجاعة، إلا أن الشجاعة هي جود بالروح كما أسلفنا، والجود بالنفس أقصى غايات الجود كما تقول الحكمة الشعرية.

3–طبيعة التكامل بين خلقي الحكمة والشجاعة

لا تكتمل الرجولة – هذا المصطلح الذي يتجاوز الشجاعة – إلا بتكامل خلقي الحكمة والشجاعة فبالعقل الذي تنتجه الحكمة، وبالقتال الذي تنتجه الشجاعة يتهيأ الإنسان للكمال، فالقتال يحتاج إلى التدبير والرأي، كما يفتقر إلى شجاعة القلب والقتال باليد، وهو إلى الرأي والشجاعة في القلب أحوج منه إلى قوة البدن، على أن الشجاعة ليست درجة واحدة من السلوك الأخلاقي وإنما تتشكل وفق طبقات متدرجة متمايزة فيما بينها، فالرجل الكامل من جمع بين الرأي السديد والشجاعة البدنية، أما نصف الرجل: فهو من انفرد بأحد الوصفين دون الآخر، ثم أخسهم الجبان الذي يفر من أقرب الناس إليه في المواقف والشدائد، ولهذا عبر الشاعر عن هذه الحكمة بقوله[2]:

---

[1] قوله صلى الله عليه وسلم: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال(صحيح البخاري، كتاب الدعوات، رقم الحديث 6369.

[2] البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، 2014.

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أولاً وهي المحل الثاني

ومما يشي بهذه العلاقةِ المتجذرة بين الشجاعة والحكمة التي هي كمال القوة المنطقية أن الشجاعة لا تنتج في القلب إلا بإرادة محبة سامية تنطبع من العقل إلى النفس وترسخ فيها حتى تحرضه على السلوك، سواء كان هذا المراد تخيلاً مقصوداً أو تصوراً موجوداً، فإن لم تتصور النفس مطلباً شريفاً مقصوداً تعوض به الخطر الذي يعترضها جراء ذلك لم تأت الشجاعة، وفي الحديث " إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها "[1] وأما إذا كان تصوراً موجوداً في نصرة الآخرين وحمايتهم ودفع الضرر عنهم فقد أصبح خلقاً عظيماً في نفسه،لذلك رأى ابن تيمية أن الشجاع حينما يتخيل نفسه عظيماً عند صدور ذلك منه كان مطابقاً، فكان اعتقاداً صحيحاً نافعاً؛ لهذا لم يذكر أن الله يحبه إلا عند الحرب؛ لأنه في هذا الموطن هو صحيح نافع؛ لأنه يحض على المحبوب، وما أعان على المحبوب فمحبوب[2] فالشجاعة إذا وفق نظرية التعاهد تعتمد على القوة العقلية وما تنطوي عليه من تفريد الإخلاص، لاسيما أن القتال في سبيل الله يجب أن تكون بواعثه القوة العقلية المنتجة للإيمان بالله تعالى، كما بيناه في المبحث السابق، فمهمة الحكمة قيادة قوتي الدفع والجذب وأخلاقهما صوب الغايات النبيلة، ولولا ذلك لاتجه هذان الخلقان (الشجاعة والشهوة) إلى أرذل الغايات وأخسها، وأضحت جهداً بلا طائل وعملاً دون جدوى.

ولأن محاججتنا عن الشجاعة فإنه يتوجب علينا البحث في مخالفة هذا المفهوم ونقيضه وهو الجبن، سعياً في كشف تقاطعاته، وقد استقرأ أحد الباحثين معانيه في القرآن الكريم ووجد أن مرادفاته تجاوزت سبعة ألفاظ، فمن أسمائه: الفشل، والرعب، والوهن، كما جاء بتعبيرات بيانية أخرى مثل: بلوغ القلوب الحناجر، حصر الصدور، الأفئدة هواء، فقد تنوعت سياقاتها في القرآن الكريم [3] وليس غريباً أن تبحث هذه الدلالات والمعاني طالما تؤثر في السلوك الإنساني والطبائع البشرية، ولعل أكثر الآثار التي يتركها هذا الخلق تصغير الانسان وتحقيره عن تطلّب معالي الأمور فلا يتشوف الى الشرف ولا تنزع نفسه إلى كمالات الاخلاق ولا تحتمل الأذى والآلام وذلك إذا اعتبرنا بمفهوم المخالفة، لذلك كان من جزاءات الجبن: النفاق، وسوء الظن، والذلّة،

---

[1] الألباني، السلسلة الصحيحة، رقم الحديث 1627.

[2] ابن تيمية، المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، 179/1.

[3] أوقنلنا، الشجاعة والجبن في القرآن الكريم، 2018.

والفقر، وقد حكى القرآن الكريم عقوبة الجبناء من اليهود، فقال تعالى (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (آل عمران:112).

وبهذا يتضح الدور المؤثر لمنقبة الشجاعة وارتكازها على بقية الفضائل إذ هي الفضيلة التي تسمح للفضائل الأخرى بالتأثير والفاعلية، فالشجاعة في النهاية لا يمكن أن تعمل دون هذه الأخلاق المحورية الثلاثة إذا اعتبرناها منفصلة عنها، وأما إذا اعتبرنا الشجاعة هي حقيقة هذه الأخلاق وما الصبر والكرم والحكمة إلا مسميات لهذه الحقيقة فإن العلاقة تكون أشد رسوخاً بل تكون نسيجاً واحداً تمتزج فيه خيوط اللُحمة بالسدى.

النتائج والخاتمة

أخيراً نستطيع أن نقول أننا توصلنا إلى عدد من النتائج ألخصها في التالي:

1- ينشأ مفهوم الشجاعة في الفلسفة الأخلاقية الإسلامية من القوة الغضبية الدافعة في الإنسان والتي تعتبر هي مركز انطلاقة هذا الخلق، لكن هذه المصدرية التي بعثت الشجاعة من مكمنها لا تعفيه من المسؤولية والتزام الأمر والنهي الأخلاقي، فليست هذه القوى الغريزية جبرية تمارس فرضاً لأوامرها بل يمكن ضبطها والتعامل معها وفقاً لقانون الشرع وميزان العقل ولعل أوضح شواهد هذه الحقيقة قوله تعالى (قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دساها) (الشمس: 9- 10) فالشجاع هو من يسيطر على غضب النفس ويقهره، وفي ذلك دلالة على ضبط الانفعالات السيئة مهما بلغت غريزة الغضب من الجموح، وقد ركّبت هذه الغريزة في طبع الإنسان فلا يمكن له أن يتخلص منها أو يقطعها، غير أن في يده أن يمنع مقدماتها ويضبط آثارها، فلا يعبر الغضب عن الشجاعة بل قد يتحول إلى مرض في القلب.

2- تأتي الشجاعة على ضربين: أحدهما جبلّة من الله تعالى دون اكتساب منه، وقد تأتي بالتحصيل والاكتساب فيشجع حتى يشجع، ذلك أن الشجاعة يمكن اكتسابها فالممارسة على معاني الفروسية يثبت القلب.

3- أن الشجاعة تعتمد في تصنيفها على مبدأ (الكمال المعتدل) وملخصها أن الخلق يترقّى تدريجياً إلى الأفضل ليتمثّل مقام الكمال الواجب حتى يصل إلى الكمال المستحب بحيث تكون من طرفي: كمال الشجاعة / الجبن، وبينهما مستويات متباينة ومتدرجة من إما ارتقاء للشجاعة أو نزولاً إلى الجبن، وبهذا يخرج خلق التهور من

هذه المعادلة التي تعتمد في بنائها على أن الخلق طرفان من جنس واحد أفضلها أعلاها وليس الوسط هو الفاضل كما تقول نظرية أرسطو في الأخلاق. فالأخلاق الإسلامية إذاً ليست وسطاً بين نقيضين وإنما لكل مفهوم أخلاقي مقياسه النوعي.

4- تعتبر الشجاعة: الثبات عند الملمات، سواء خاض هذه المواقف أو اضطر إليها، وهذا الثبات يكتسب حداً جديداً في المنظومة الأخلاقية، فالثبات يكون في القلب بالصبر والمجالدة وهي صورة الشجاعة الباطنة، كما كان الثبات بالأجساد والأقدام وهي الصورة الظاهرة للشجاعة، ومن هنا نستطيع أن نقول أن القلب يمثّل أساس هذا الخلق، ولذلك كانت نظرية التعاهد تعني: الثبات في حفظ الإيمان بين العبد وربه عند تقابل جلب المصالح ودفع المضار.

5- تفسر نظرية التعاهد بناء مفهوم الشجاعة في الأخلاق الإسلامية النظرية التي تقوم عليها فلسفة الشجاعة وفقاً لثلاثة أسس وفقاً لثلاث مقامات أخلاقية، ومتى ما اختل ركن من هذه الأسس خرجت به من معهود الخلق المحمود إلى الخلق المذموم، وأول هذه الأسس: أن الشجاعة الباطنة (ثبات القلب) هي محرك الشجاعة الظاهرة (ثبات الأقدام) وذلك لأنه عهد مع النفس وهذا هو مقام الثبات فلم يورد القرآن الكريم مفردة مرادفة لـ (الشجاعة) إلا على معنى الاطمئنان والثبات في مواقف القتال ومعترك الجهاد، والأساس الثاني: قصد التقرب في الشجاعة يكون بالنية الأخلاقية وليس الحمية وذلك لأنه عهد مع الله تعالى وهذا هو مقام الإخلاص، فالشريعة الأخلاقية حجمت صورة العمل المجردة من النية الأخلاقية ويعزز ذلك شهود الذكر الإلهي فإنه يحفز طاقة الشجاعة إلى أعلى مستوياتها، أما الأساس الثالث فهو التكامل بين عالمي الغيب والشهادة ذلك لأنه اقتران بين العهدين (مع النفس ومع الله تعالى) وهذا هو مقام الإيمان.

6- ثبوت العلاقة المعرفية والسلوكية بين الشجاعة من جهة، وأخلاق الصبر والكرم والحكمة من جهة أخرى، وهي علاقة وجود وكمال، كما أن الشجاعة تنطوي في حقيقتها على الصبر والكرم والحكمة وإلا فقدت هيئتها النفسية، فالمسميات مختلفة وحقيقة المعنى واحدة، فالشجاعة صبر على الأشياء المرجوة والمخوفة، كما أنها كرم في بذل الإنسان أغلى ما يملك، ولا شجاعة إلا بحكمة وإلا انقلبت تهوراً

ورعونة، وهذا يثبت مدى تماسك نظرية التعاهد التي تعتبر قوة العلاقات وتشابكها بين هذه القوى وأخلاقها هي القيمة الأهم في بنائها.

المصادر والمراجع

1-القرآن الكريم
2-الألباني، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي، سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1415.
3-ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨٦ م.
4-ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1416.
5-ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام، جمع وترتيب: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، ١٤١٨ هـ.
6-ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، جامع المسائل، تحقيق: محمد عزير شمس، مكة المكرمة: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، 1422 هـ.
7- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، الرد على المنطقيين، بيروت: دار المعرفة، د.ت.
8-ابن فارس، أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر،١٩٧٩م.
9- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، بيروت: دار الكتب العلمية،1418هـ.
10- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، الطبعة الثالثة، بيروت: دار صادر، 1414 هـ.
11-الإيجي، عضد الدين عبدالرحمن بن أحمد، المختصر في علم الأخلاق، اعتنى به: نزار حمادي، تونس: دار الامام ابن عرفة،د.ت.
12- ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1408 هـ.

13- أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق السِّجِستاني، سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، صيدا: المكتبة العَصرية، د ت.

14-ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، الطبعة الثانية بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩م.

15- ابن حميد، صالح بن عبدالله، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول، الطبعة الرابعة، جدة: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، 1418.

16- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبدالله، سراج المريدين في سبيل الدين لاستنارة الأسماء والصفات في المقامات والحالات الدينية والدنيوية بالأدلة العقلية والشرعية القرآنية والسنية، تحقيق: عبدالله التوراتي، طنجة: دار الحديث الكنانية،1438.

17-ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر، قانون التأويل، دراسة وتحقيق: محمد السليماني، جدة: دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة، ١٩٨٦ م.

18-ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر: أحكام القرآن، تعليق: محمد عبد القادر عطا، الطبعة الثالثة،بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣ م.

19- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الفروسية المحمدية، تحقيق: مشهور بن حسن بن محمود حائل: دار الأندلس، ١٩٩٣.

20- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، دمشق: دار ابن كثير، الطبعة الثالثة، 1409.

21-ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب، السماع، تحقيق: عبدالمنعم السيوطي، الرياض: مدار الوطن.

22- أوقنلنا، عبدالرحمن حسن، الشجاعة والجبن في القرآن الكريم، رسالة ماجستير غير منشورة،قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية، الخرطوم: جامعة أفريقيا العالمية، 2018.

23- أبو فراس الحمداني، الديوان، تحقيق:خليل الدويهي، الطبعة الثانية، بيروت: دار الكتاب العربي، 1994.

24-البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير الناصر، بيروت: دار طوق النجاة، 1422.

25-بدوي، عبدالرحمن، الأخلاق النظرية،الطبعة الثانية، الكويت: وكالة المطبوعات، 1976م.

26-بدوي، عبدالرحمن، موسوعة الفلسفة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984م.

27- البرقوقي، عبدالرحمن، شرح ديوان المتنبي، القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2014.

28- – البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الطبعة الثالثة، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣ م.

29-الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الرابعة، بيروت: دار العلم للملايين، ١٤٠٧ هـ.

30-الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تخقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق: دار القلم، ١٤١٢ هـ.

31- السعدي، عبدالرحمن ناصر، الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة، القاهرة: دار المنهاج، 1426.

32- الصديقي، محمد علي بن محمد بن علان، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، عناية: خليل مأمون شيحا الطبعة الرابعة، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، 1425.

33-فلوري، سينتيا، نهاية الشجاعة:من أجل استعادة فضيلة ديمقراطية، ترجمة: عبد النبي كوارة، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.

34- الكرماني،شمس الدين محمد الكرماني، شرح رسالة الأخلاق لعضد الدين الإيجي، تحقيق ودراسة: د أحمد رجب أبو سالم ود. نظير محمد عباد، الأردن: دار الفتح، 1442هـ.

35-مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، تحقيق: ابن الخطيب، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

36-مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن، المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي.د.ت.

37-عبدالرحمن، طه، المفاهيم الأخلاقية بين الائتمانية والعلْمانية، الكويت: مركز نهوض، 2020.

38-ايزتسو، توشيهيكو، المفهومات الدينية الأخلاقية في القرآن، ترجمة: عيسى العاكوب، دمشق: دار نينوى، 1438هـ.

39-الرازي، فخر الدين أبو عبدالله محمد بن عمر ،كتاب النفس والروح وشرح قواهما في علم الأخلاق، تحقيق: الدكتور عبدالله إسماعيل، القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث 2020م.

40- الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، الصحاح، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، بيروت: المكتبة العصرية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ، ص161

41- طالبي، عمار، آراء ابن العربي الكلامية، الجزائر: الشركة الجزائرية، ١٩٧٤م.

42- الطرطوشي، أبو بكر محمد بن محمد ابن الوليد، سراج الملوك، المكتبة الشاملة https://shamela.ws/book/1585.

43- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم القاهرة: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع.

44- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، ميزان العمل، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٤ م.

45- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، بيروت: دار المعرفة، د.ت.

46- الكفوي، أيوب بن موسى الحسيني القريمي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، بيروت: مؤسسة الرسالة.

47- المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين، التوقيف على مهمات التعريف، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٠م.